قصص «مقهى الباشورة» ودورها الريادي

■ تيسير نظمي *

احتفت رابطة الكتاب في الأردن مؤخراً بأحد المؤسسين لها «تأسست عام ١٩٧٤» وهو الكاتب القاص خليل السواحري صاحب المجموعة القصصية المتميزة بجدارة في مسار القصة الفلسطينية الواقعية النقدية القصيرة «مقهى الباشورة»، تلك المجموعة التي شكلت مفارقة بالغة الجرأة في حينها عندما كتبها خليل السواحري في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ وفي نفس الوقت تقريباً الذي كتب فيه الأديب الفلسطيني الراحل إميل حبيبي «سداسية الأيام الستة»، التي كانت الأخرى علامة فارقة ومتميزة في مسار الشكل الروائي سواء للرواية الفلسطينية التي كان يمثلها حينذاك خير تمثيل الأديب الراحل غسان كنفاني أو في مسار الرواية العربية التي كانت لا تزال متدفقة ا لجريان والعطاء من قبل نجيب محفوظ الذي كان في تلك الأيام قد كتب رواية «ميرامار»، هكذا إذن جاءت «مقهى الباشورة» أحد صروح القصة القصيرة المتميزة بجدارة الطرح وتوقيته وشجاعته ووعي كاتبها الذي لم يجرفه تيار الرومانسية الثورية التي نجمت عن بروز ظاهرة العمل الثوري والفدائي المسلح كرد فعل على الهزيمة في بروز للشخصية الوطنية الفلسطينية في خضم عربي عانى مما عاناه من وقع الهزيمة من الصدمة والذهول نتيجة هزيمة الجيوش العربية المفجعة، ليدرك مؤرخو تلك المرحلة فيما بعد أو بعضهم على الأقل كيف جرى تقديم الفدائي آنذاك كبش فداء لهزيمة بعض الأنظمة العربية المنكرة في تاريخ الصراع العربي-الإسرائيلي الصهيوني، فالرومانسية الثورية كانت تنظر لمثل قصص خليل السواحري في «مقهى الباشورة» نظرة

* قاص وناقد أردني.

تشكيك وريبة حين كانت تسير ضد التيار، وتقدم بواقعية جريئة وفذة نقدها لواقع التخلف الذي تكشف في أعقاب المواجهة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بعامة بين مجتمع الضفة الغربية ومجتمع لم يمض بعد على تأسيسه كدولة نحو أقل من عشرين سنة تقريباً، فما تزال صورة المختار المذعور على موقعه والذي ينصحه أحد الزعران بأن يسارع إلى قطع الطريق على من يطمحون في عهد الاحتلال بالمختارة بأن يتوجه للحاكم العسكري ليطلب منه الختم الجديد باعتبار الاختام الأردنية باتت بعد سقوط الضفة لاغية، ما تزال تلك القصة من قصص «مقهى الباشورة» ماثلة للذهن وفي الذاكرة كأحد أبرز المفارقات المؤلمة للسخرية المريرة من واقع ما نزال نعايشه حتى اليوم رغم تبدل المخاتير والاختام، وقصص أخرى بالطبع لا مجال لسردها أو تلخيصها هنا عند الحديث عن مكانة خليل السواحري التاريخية والفنية في حينه وعن دوره الريادي في ارتياد مناطق خطرة وجديدة في الواقعين الفلسطيني والعربي بعامة، لكنني وقد ارتضيت لنفسي لعب دور الناقد والمؤرخ الأدبي في هذه العجالة سوف أتطرق أيضاً لقصص نادرة التداول في الصحافة الثقافية وهي أيضاً من القصص الساخرة المريرة التي لا تنسى عن تلك المرحلة وأعني الستينيات وأوائل السبعينيات والتي كان لها عميق الأثر في أبناء جيلنا- أقصد جيل السبعينيات في القصة القصيرة الفلسطينية والعربية عامة، أقصد هنا-ويا للمفاجأة لبعض من لم يقرأها-قصص «حال الدنيا» وهي المجموعة القصصية الوحيدة للشاعر والسياسي المخضرم الراحل توفيق زياد.

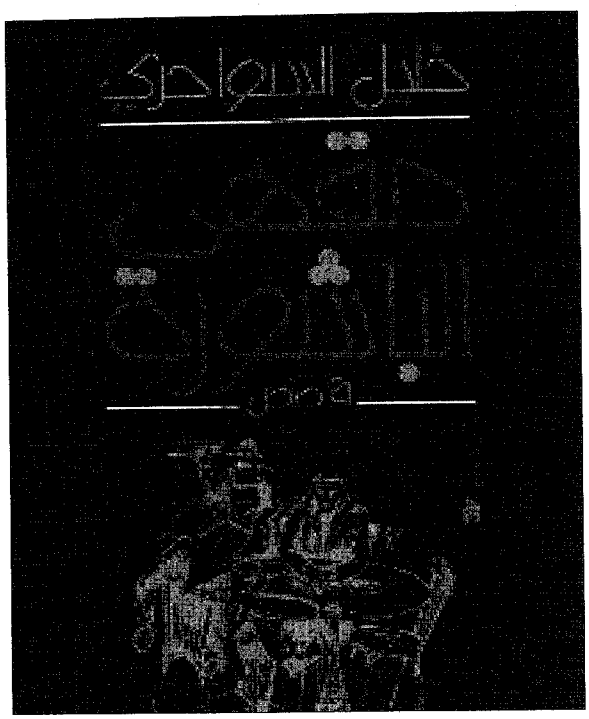

فهذا الشاعر الكبير الذي عرفناه من خلال قصيدته.. «أناديكم، أشد على أياديكم، وأبوس الأرض من تحت نعالكم وأقول أفديكم..» كان أيضاً كاتب قصة من طراز فريد في تناولها وواقعيتها السياسية النقدية الجارحة والمؤلمة، بحيث يكتشف الدارس اليقظ والناقد المتمكن أن المجموعتين «مقهى الباشورة» و«حال الدنيا» و«سداسية الأيام الستة» تنتمي لمدرسة سياسية وأدبية واحدة وتكمل كل منها الأخرى بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا بالرجوع لتاريخ الوعي السياسي والحزبي في تلك الحقبة سواء تمثل ذلك الوعي في شقه الفلسطيني داخل «إسرائيل» أو في شقة الفلسطيني داخل الأردن إلا أنه يشكل كلاً متكاملاً وفي الوقت نفسه يتداخل في جدلية أدبية وفنية مع القصص الأخرى

لكتاب مثل سميرة عزام وغسان كنفاني وبعض من جاءوا من رحم حركة القوميين العرب والتحولات التي شهدها مثقفو تلك الحركة الذين كان الراحل غسان كنفاني أبرز من يمثلهم في سرعة تطوره ونضجه القصصي والروائي حيث انتقل «وكما توقع له سعدي يوسف» بسرعة وذكاء من رواية مثل «عائد إلى حيفا» إلى رواية «أم سعد» وقبل أن يبلغ السادسة والثلاثين من عمره شرع يكتب مشروعيه الروائيين اللذين لم يكتملا وهما «برقوق نيسان» و«الأعمى والأطرش».

(استشهد غسان كنفاني في ٨ تموز عام ١٩٧٢ عن عمر لا يتجاوز السادسة والثلاثين) ومن يقرأ قصص غسان كنفاني وسميرة عزام وقصص توفيق زياد وخليل السواحري لا بد وأن يلاحظ وجود النكهتين اللتين تكملان بعضهما البعض في مسيرة الأدب القصصي الفلسطيني قبل أن نصل إلى أحد عمالقة الرواية الفلسطينية والعالمية وهو فواز تركي الذي كتب الرواية باللغة الانجليزية ولم تصدر ترجمتها إلى العربية عن أي دار نشر عربية حتى الآن «ملاحظة: ترجمتها بنفسي بعد صدور الطبعة الثانية منها عام ١٩٧٤ بعشر سنوات ورفضت مجلة (الكرمل) الفلسطينية نشرها كاملة حتى تاريخ كتابة هذا المقال»، ومنعاً لأي إسهاب أو إطالة، أقول أن خليل السواحري رقم من هذه الأرقام الصعبة التجاهل في معادلة الصيرورة الأدبية والسياسية الفلسطينية التي أغنت ورفدت الأدب العربي والثقافة العربية بموضوعاتها ومعالجاتها بل وكما يذهب يوسف إدريس نفسه وهو رائد القصة القصيرة العربية الحديثة بلا منازع، لدى قراءته للأعمال الكاملة القصصية لغسان كنفاني، بأنه ذهل وهو يقرأ في وقت متأخر اسهامات الفلسطينيين في خلق وتشكيل أدبهم وهويتهم الفنية والسياسية والحضارية خاصة بعد الاستشهاد الاستثنائي لغسان كنفاني، وإذا كان بعض من قرأوا غسان كان بفعل بشاعة منفذي عملية اغتياله فإن كتاباً مثل إميل حبيبي وتوفيق زياد وخليل السواحري لا يقلون شأناً عن غسان كنفاني وسميرة عزام، فقد كتب الراحل صلاح عبدالصبور مشيداً أيضاً برواية «سداسية الأيام الستة» عندما صنفها بين الروايات التي تقدم إضافة في الشكل الروائي حديثة على الأدب العربي المعاصر حتى تاريخه في مناسبة كتابته النقدية للتعريف برواية «كانت السماء زرقاء» لاسماعيل فهد اسماعيل، أيضاً في مطلع السبعينيات مشيراً لرواية مارسيل بروست «البحث عن الزمن الضائع» وفي الختام لا بد أن أشير إلى أنني سبق وأن قدمت نماذج من «مقهى الباشورة» في مجال دراستي لمفهوم القصة القصيرة في أدبنا العربي ونشرت تلك الدراسة على حلقات في أواخر السبعينيات لا أجد فائدة كبيرة اليوم في تكرارها، فضلاً عن أنها شبه مفقودة- وقد تجاوزها- لربما الزمن في مجال الاحتفاء بالقاص المبدع خليل السواحري، الذي أحترمه لقلة إنتاجه ولتميزه وريادته في «مقهى الباشورة» وما هذه العجالة إلا محاولة مني للإمساك بالزمن الضائع، لعل الأجيال الجديدة من المتسرعين في كتابة القصة وتصدير الكتب تعيد النظر في كثير مما تصدره للقراء على أنه ينتمي للفن أو للواقعية أو للحداثة وفي القصة على وجه الخصوص قبل أن يفلت منها الزمن والعمر دون أن تنتج لنا شيئاً يعلق في الذاكرة، ولخليل السواحري وجيل الريادة كل التقدير والاحترام والعرفان.